ادوية داء القلوب ، مركبة من افعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى ان السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ؛ ولا يخلو عن سر من الاسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها الا بنور النبوة. ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط ، بطريق العقل ، لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية. وكما أن في الادوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالانبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وانما فائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا (اليها) تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين . فالى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، الا عن تفهم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة.

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرت الى أسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي أربعة :

١ — سبب من الخائضين في **علم الفلسفة** ؛

٢ — وسبب من الخائضين في **طريق التصوف** ؛

٣ — وسبب من المنتسبين الى **دعوى التعليم** ؛

٤ — وسبب من معاملة **الموسومين بالعلم** فيما بين الناس .

فاني تتبعت مدةً آحاد الخلق ، أسأل من أن يقصر منهم في متابعة الشرع (واسأله) عن شبهته وابحث عن عقيدته وسره وقلت له : « ما لك تقصر فيها فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك

لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بايام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وان كنت لا تصرح به تجملاً بالايمان وتشرفاً بذكر الشرع ! »

فقائل يقول : « ان هذا امر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ؛ وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الاوقاف واموال اليتامى ، وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! وهلم جراً الى امثاله .

وقائل ثان : يدعي (علم) التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلل بشبهة اخرى من شبهات أهل الاباحة !

وهولاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق اليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ » .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وانما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى ايمان من قرأ (مذهب) فلسفة الإلهيين منهم ؛ وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : «إن كانت النبوة غير صحيحة ، فلمَ تصلي؟» فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلمَ تشرب الخمر ؟ » فيقول : « إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري. » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً ؛ فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا ايمان من يدعي الايمان منهم . وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم [وطرقهم] –أعني [طرق] الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسّمين من العلماء– ، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت ، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الاطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت في نفسي : « متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعاداك أهل الزمان باجمعهم ، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟ »

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار

الحق بالحجة. فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالنهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة . وبلغ الالزام حداً كان ينتهي ، لو أصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك عُسْرَ معاناة الخلق ، والله سبحانه وتعالى يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم : الم. أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون ؟ ولقد فتنّا الذين من قبلهم » الآية . ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه : « ولقد كُذّبَتْ رُسلٌ من قبلكَ فصَبروا على ما كُذّبوا وأُوذوا ، حتى أتاهم نصرُنا ؛ ولا مبدّلَ لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبإ المُرسَلينَ » . ويقول عز وجل « بسم الله الرّحمن الرّحيم : يس . والْقُرآن الحكيم » إلى قوله : « إنما تُنْذِرُ مَنِ اتّبَعَ الذكْرَ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ » . فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ؛ وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ؛ فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مـــائة . ويسّر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربع مائة . وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة . وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة . وهذه حركة قدّرها الله تعالى ، (وهي) من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الاحوال مما خطر امكانه أصلاً بالبال ؛ والله تعالى مقلب القلوب والاحوال و « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » . وأنا أعلم أني ، وان رجعت الى نشر العلم ، فما رجعت ! فان الرجوع عَوْدٌ الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم

الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فأدعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ؛ يعلم الله ذلك مني ؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصِل الى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن ايمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة الا بالله (العلي العظيم) ؛ وأني لم أتحرك ، لكنه حركني ؛ وأني لم أعمل ، لكنه استعملني ؛ فأسأله أن يصلحني اولاً ، ثم يُصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ؛ وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن الى ما ذكرناه من اسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم :

اما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من اهل التعليم ، فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره (في) هذه الرسالة .

واما ما توهمه اهل الاباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة انواع وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

واما من فسد ايمانه بطريق الفلسفة ، حتى انكر اصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود (علم) خواص الادوية والنجوم وغيرهما . وانما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وانما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات ، مثلاً من نفس علمه ، برهان النبوة .

واما من اثبت النبوة بلسانه ، وسوّى اوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وانما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص ، يقتضي

طالعه أن يكون متبوعاً ؛ وليس هذا من النبوة في شيء . بل الإيمان بالنبوة : أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن ادراك الالوان ، والبصر عن ادراك الاصوات ، وجميع الحواس عن ادراك المعقولات . فإن لم يجوز هذا ، فقد أقمنا البرهان على امكانه ، بل على وجوده . وان جوز هذا ، فقد اثبت ، ان ههنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق من الافيون ، سم قاتل لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة ، يزعم أنّ ما يبرد من المركبات ، انما يبرد بعنصري الماء والتراب ؛ فهما العنصران الباردان . ومعلوم ان ارطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن الى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته ان فيه نارية وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ؛ فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد . فإن انضم اليه حارّان فبأن لا يوجب ذلك أولى . » ويقدر هذا برهاناً ! واكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبني على هذا الجنس ! فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرُؤْيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، انه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لانكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة ، يوضع في بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يُبقي [شيئاً] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ » لقال : « هذا لمحال وهو من جملة الخرافات ! » وهذه حالة النار ، ينكرها من لم يرَ النار اذا سمعها . واكثر [انكار] عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت الى ان تقول : في الافيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلمَ لا يجوز ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ،

بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة ؟ » بل قد اعترفوا بخواص هي اعجب من هذا فيما اوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق ، بهذا الشكل :

ب	ط	د
ز	ه	ج
و	ا	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر اليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال الى الخروج . وقد اقروا بإمكان ذلك واوردوه في « عجائب الخواص » ؛ وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل او في عرضه او على التأريب .

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الاوقات . وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب انّا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الاوقات ، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، او في الطالع ، او في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الاعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب؟ » الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال

يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم [له] : «اذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر اليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد عرف كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الانبياء — فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ! (ولم لايتسع لامكانه !)

فان أنكر فلسفي امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ، ورمي الجمار ، وعدد اركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقاً اصلاً . فإن قال : « قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ؛ وهذا لم اجربه ، فبم اعلم وجوده وتحقيقه؟ » وان اقررت بإمكانه ، فأقول : « انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع اقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك . »

على أني اقول : « وان لم تجربه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب (المرض) ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : «هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . » فماذا يقتضيه عقله ، ان كان الدواء مراً كريه المذاق ، أن يتناول؟ أوَيكذب ويقول : « انا [لا] أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ! » فلا شك انك تستحمقه ان فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك اهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فبمَ اعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول : « وبم عرفت [شفقة

ابيك] وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن احواله وشواهد اعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تتمارى فيه . »

ومن نظر في اقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الاخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جرّ الناس بأنواع الرفق واللطف ، الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين ، وبالجملة الى ما يصلح به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته اعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر الى عجائب ما ظهر عليه من الافعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الاخبار ، والى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه الا الخواص ، والامور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ . فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار ، تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان.

واما السبب الرابع — وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

احدها : أن تقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر [ولحم الخنزير] والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وانت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم ايمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعامه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

« وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وان زجره

الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، او على ان الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا يحمل هفوات العلماء . »

الثاني : ان يقال للعامي : « ينبغي ان تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وان جاز ان يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو ، وان ترك العمل ، يدلي بالعلم . واما انت ايها العامي ! اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك ! »

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . اذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سمٌ مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرَف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى [منه] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ورجاءً] ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان. فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ ، وهو بعيدٌ عن الإصرار والإكباب .

* * *

هذا ما اردت ان اذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من انكر عليهما، لا بطريقه .

* * *

نسأل الله العظيم ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .